محكم

البحث السوسيولوجي في المغرب

مقاربة تاريخية ـ موضوعاتية

محمد أعراب

باحث مغربي

قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

تتوخى هذه الدراسة تقديم نظرة عن نشأة وتطور السوسيولوجيا التي تم إنتاجها من قبل السوسيولوجيين المغاربة، منذ استقلال المغرب إلى حدود سنة 2006. إنها تحاول رسم وتحديد المراحل الكبرى والمواضيع الأساسية والتوجهات النظرية لهذه البحوث السوسيولوجية، آخذة بعين الاعتبار سمة الالتباس المتعلقة بعلاقة السوسيولوجيا بتخصصات علمية مجاورة لها، وبصفة خاصة الأنثروبولوجيا.

وستعالج هذه الدراسة نشأة وتطور السوسيولوجيا في المغرب وفق التصميم والخطوات الآتية:

- من السوسيولوجيا الخلدونية إلى السوسيولوجيا الاستعمارية.
- الالتزام والتحرر من السيطرة الاستعمارية.
- سوسيولوجيا المرأة: أو السوسيولوجيا بصيغة المؤنث.
- سوسيولوجيا استكشافية "une sociologie d'exploration".
- دراسات أنثروبولوجية
- السوسيولوجيا: الميدان– النظريات والخبرة Sociologie: terrain – terrain et expertise

1– من ابن خلدون إلى السوسيولوجيا الاستعمارية

وجدت السوسيولوجيا المغربية نفسها، غداة الاستقلال، أمام تراكم من الدراسات والمونوغرافات Monographes التي تم إنتاجها خلال المرحلة الاستعمارية، من قبل باحثين سوسيولوجيين وضباط "شؤون الأهالي"، عبأتهم الإدارة الاستعمارية لخدمة تدخل استعماري، يتأسس ويستند على معرفة للمجتمع المغربي خلال هذه الحقبة التاريخية.

وتجدر الإشارة إلى أن رصد تاريخ السوسيولوجيا المغربية وتطورها، لا يمكن القيام به دون الحديث والوقوف على مساهمة ابن خلدون، والذي حظي باهتمام السوسيولوجيين المغاربة غداة الاستقلال، حيث كان يدرس للطلبة باعتباره رائدا أول للسوسيولوجيا المغربية.

سيظل وجه ابن خلدون راسخا وبارزا في تاريخ الفكر السوسيولوجي المغربي، حيث أرسى دعائم البحث الموضوعي والتحليل العلمي لديناميكية المجتمعات والمماليك Les dynasties. لكن الباحثين العرب، من بعده، لم يتبعوا نهجه، وسلكوا مسلك القراءة المعيارية. والسؤال الذي يتبادر إلى ذهننا في هذا السياق، هو الآتي: لماذا بقي ابن خلدون وحيدا، إن لم نقل فريدا في زمانه، ودون وريث في الفكر العربي؟ إنه سؤال يتجاوز حدود هذه الورقة وهذه الدراسة.

إن التفكير في السوسيولوجيا في المغرب، في تطورها وقضاياها، يقودنا إلى هذه النشأة "اللا شرعية" التي حدثت إبان الحقبة الاستعمارية.

إن الطلب على السوسيولوجيا، هو نتاج لمشروع مجتمعي: إنه مشروع استعماري، حيث كانت السوسيولوجيا مجرد أداة، يتم تعبئتها لتوفير غطاء علمي. ولا حاجة لنا أن نذكر هنا، بأطروحة "روبير مونتناي" Robert Montagne حول "البربر والمخزن" التي تمثل نموذج النظرية الاستعمارية، والتي تعكس الوجه الإيديولوجي الاستعماري للسوسيولوجيا الاستعمارية. ولكن، ورغم ذلك، كانت دراسة لها قيمتها المعرفية الأمبريقية. ولا يسمح لنا المقام هنا لتقديم دراسة تقويمية لهذه البحوث.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن السوسيولوجيا، التي ستنشأ غداة الاستقلال سنة 1956، ستبدأ باتخاذ موقف نقدي تجاه هذا الإرث الكولونيالي.

2- سسيولوجيا الالتزام والتحرر

إن نشأة السوسيولوجيا في المغرب المستقل، ترتبط أساسا باسم "بول باسكون" Paul Pascon 1932-1985. الذي حاز على الجنسية المغربية في يناير 1964.

لقد أسس رفقة جماعة من زملائه، ينتمون إلى حقول معرفية متنوعة، البنية الأولى للبحث. كان ينظر إلى البحث السوسيولوجي في هذه الفترة، باعتباره عملا نضاليا. إن جل أعمال "بول باسكون" Paul Pascon وأعمال زملائه في الحقل السوسيولوجي، قد أنجزت في إطار السياسات العمومية (السياسة الزراعية – السياسة المائية...).

إذا كانت علاقة بول باسكون بالسوسيولوجيا القروية جد قوية، نظرا لوفرة وغزارة إنتاجه في هذا الحقل السسيولوجي، والذي تميز بدقته وصرامته العلمية، فإن باحثين آخرين، ينتمون إلى مؤسسات جامعية أخرى، قد انخرطوا بدورهم في هذه السوسيولوجيا الملتزمة Sociologie d'engagement.

نذكر على سبيل المثال: عبد الكبير الخطيبي، ومحمد جسوس. إن السوسيولوجيا التي ظهرت، وموروست خلال سنوات الستينيات والسبعينيات، من القرن الماضي، قد اتسمت وتميزت بطابعها النقدي، على المستوى النظري والسياسي.

لقد كان الشعار الذي يجب العمل به، في تلك الحقبة، هو تحرير علم الاجتماع من الجهاز المفاهيمي الاستعماري، وتطبيقه في البحث السوسيولوجي في المغرب، حيث رأى عبد الكبير الخطيبي: "أن تحرير

السوسيولوجيا يقتضي عدم تبعيتها علميا للمتروبول Métropole" دولة المركز "فرنسا" وسياسة نقدية، تقدم على أساس التحليل المقارن للدول التي لم يتم دراستها وتحليلها بكيفية جيدة".[1]

المهمة الأساسية للسوسيولوجيا تتحدد في القيام بعمل مزدوج، أو حسب تعبيره نقد مزدوج: "هدم ونقد المفاهيم ذات النزعة المتمركزة حول الذات؛ "أي الغرب" أو "الآخر"، والسائدة لدى السوسيولوجيين الذين تكلموا نيابة عن المغاربة. والقيام في الوقت ذاته، بنقد المعرفة والخطابات التي تم بناؤها من قبل المجتمع المغربي أو العربي حول ذاته.

كتب الخطيبي في مقال تحت عنوان: "لنعمل على تحرير السوسيولوجيا" ما يلي: "بالنظر إلى ما نسميه العالم الثالث، لا يمكن لنا أن ندعي أن التحرير قد تجلى في تبلور فكر سوسيولوجي نقدي خالص، تجاه الآلة الإيديولوجية الأمبريالية والنزعة المركزية للغرب éthnocentrisme تحرر يمكن أن يكون في الوقت ذاته تفكيك Déconstruction (مفهوم مقتبس من دريدات Derrida) للخطابات التي تسهم بصورة مختلفة في الهيمنة الأمبريالية".[2]

كان البحث السوسيولوجي والالتزام السياسي بالنسبة للجيل الأول من علماء الاجتماع المغاربة أمرين متلازمين، حيث لا يمكن الفصل في هذه المرحلة بينهما. كان من الضروري على كل باحث أن ينخرط بكيفية واضحة في مشروع مجتمعي محدد. وكان هذا الالتزام يترجم حسب "بول باسكون" Paul Pascon فيما كان يصطلح عليه بـ "سوسيولوجيا الفعل sociologie de l'action، وهو مفهوم قريب إلى حد ما من "السوسيولوجيا العملية الملتزمة Sociologie Appliance engagé". في نص براغماتي تحت عنوان "السوسيولوجيا من أجل ماذا؟ يقدم ويعرض بول باسكون المبادئ الكبرى لنشاطه العلمي"؛[3] فالمعرفة حسب رأيه ينبغي أن تعمل على تغيير العالم. فالسوسيولوجيا ليست محايدة ولا عملية. "إن الدفاع عن الفلاحين والجماهير المستغلة يجب أن تحرك وتنشط فعالية السوسيولوجي. نحن نرغب في أن يطرح القرويون والفلاحون أسئلة وإشكاليات ...".

إلى جانب ذلك، أن ينظر إلى تدريس السوسيولوجية وتعليمها في الجامعة والمعاهد العليا، على أنها عمل ملتزم، ونضال سياسي يدخل في إطار السوسيولوجيا الملتزمة. إن التعليم الجامعي للسوسيولوجيا يعد في حد ذاته ممارسة نضالية وتربوية. تبدو هذه الحقيقة، وهذا الاتجاه بصفة خاصة في دروس ومحاضرات وأعمال الدكتور محمد جسوس، الذي كان يوظف ويعبئ معرفته السوسيولوجية بصفته مناضلا سياسيا والعكس صحيح.

[1]- الخطيبي، **Les pays sous-analysés ou mal analysés**، 1991، ص 42
[2]- الخطيبي 1981 ص 129-113- سنة 2001
[3]- Paul Pascon, 1986- p 59-70

كان الأستاذ محمد جسوس، في تدخلاته وحواراته السياسية حول قضايا مرتبطة بالسياسة والتعليم والتنمية، يحلل ويناقش هذه القضايا بطريقة بيداغوجية قصد توضيحها وتفسيرها بدقة.

لهذا، غالبا ما نجد في حواراته ومداخلاته عروضا نقدية حول النظريات والمفاهيم ذات الصلة بالتحديث والتغيير، والخصوصية الثقافية والإيديولوجية.

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب مداخلاته، قد تم نشرها في مجلات علمية أكاديمية، يديرها أساتذة باحثون. كما نجد دراسات باللغة العربية، نذكر على سبيل المثال: "محاضرة حول العقلانية" la rationalité، "الحداثة، ورهانات درس السسيولوجيا المغربية" ونص غير منشور حول "القيادات والتراتبات الاجتماعية في المغرب" les stratifications sociales.

إن الإنتاجات الأولى في سوسيولوجيا حقبة الاستقلال، كانت تغلب عليها حسب تعبير Karl Poper "كارل بوبر" "الابستمولوجيا المتفائلة" l'épistémologie optimiste، والتي تترجمها الدعوة إلى تحرير المفاهيم Décolonisation وتحرير العلوم الغربية، وهذا تقليد فكري، يعود على الأقل إلى عهد فرنسيس بيكون Francis Bacon، الذي يؤكد أن الحقيقة تصبح واضحة وجلية، كلما ابتعد الباحث والملاحظ عن الأحكام القبلية المسبقة، والذاتية والإيديولوجية وغيرها... ويرى البعض أن الباحثين الذين لهم نوايا سيئة، لا ينتجون سوى معطيات ومعلومات زائفة ومغلوطة، لهذا يجب تنقية وتصفية البحوث الأمبريقية الكلونيالية من نزعاتها وأحكامها القبلية الزائفة، والتخلص منها قدر الإمكان، والعمل على التحرر من المفاهيم والإيديولوجيات التي تؤطرها، وتوجهها.

أ- بول باسكون Paul Pascon

كان بول باسكون يؤكد أن السسيولوجيا تصبح بلا جدوى، إذا لم تقم بمهمة الكشف والتعرية Dévoiler.

لقد كانت السوسيولوجيا يحكمها منطق الكشف والتعرية le dévoilement لكل ما هو خفي وكامن، تصحيح لكل واقع اجتماعي مشوه ومزيف، وتغيير المجتمع.

لهذا، وانطلاقا من هذه الرؤية، وهذا الإطار الإيديولوجي، ظهرت أهمية وقيمة البحث الميداني في السوسيولوجيا. واعتمدت البحوث السوسيولوجية في هذه المرحلة، على أسلوب الملاحظة المباشرة، والمقابلات الميدانية مع الفلاحين، والنساء القرويات، والشباب.

لكن لا يمكن لنا أن نفسر هذا الاهتمام بالبحث الميداني فقط، بل أيضا بدوافع إيديولوجية، بل إن بول باسكون كان مسكونا بالبحث في أدق التفاصيل، والتحضير الدقيق المنظم لدراساته. لهذا، لم تكن زياراته

الميدانية عبارة عن تواصل المناضل مع جمهوره، بقدرما كان أيضا يرجع إلى طبيعة تكوينه العلمي الرصين في العلوم الطبيعية لأسباب سياسية وعملية.

إن تاريخ السوسيولوجيا، وفيما بعد تاريخ الأنثروبولوجيا، تغلب عليه الدراسات في الوسط القروي، حيث كانت تسمح الظروف العامة آنذاك في إطار برامج التنمية، تسمح لإمكانية إجراء بحوث ميدانية، حيث أصبح العمل الميداني مرادفا للتنقل والخروج إلى الوسط القروي.

إن معهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة، وبصفة خاصة شعبة العلوم الإنسانية، في هذا المعهد، كانت متخصصة بالبحث في العالم القروي، وهي التي كرست هذا التوجه نحو السوسيولوجيا القروية في المغرب.

ب- نحو مقاربة شمولية ونسقية une approche holiste

خلال سنوات الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، كانت تهيمن النظرية الماركسية، وذلك على مستوى النماذج والبراديكمات Paradigmes النظرية. لقد كانت سوسيولوجيا تلك المرحلة أو الحقبة، تحاول تفسير آليات سير المجتمع من منظور شمولي نسقي.

لقد قارب بول باسكون مجتمع "الحوز" Haouz والمجتمع المغربي عامة، مستخدما مفاهيم شمولية Les concepts holistes كمفهوم التشكيلة أو التركيبة الاجتماعية "La formation sociale" ونمط الإنتاج، والمجتمع المركب، والطبقات الاجتماعية، ودعائم وأسس الواقع الاجتماعي les paliers الخ...[4] (Paul Pascon, 1993 Khalibi 2004).

يعتبر مجتمع الحوز "مركبا Composite"، لأنه لا يمكن نعته بهذه الصفة أو تلك بكيفية واضحة، ولكن نجد عدة أنماط من الإنتاج تسهم في تكوين وتشكل "تركيبته الاجتماعية" formation sociale، Patriarcat، الأبوية، القبلية، الإقطاعية الرأسمالية، الاشتراكية أيضا، لكن، هذه الأخيرة، توجد فقط على مستوى الإيديولوجيا والتنظيم السياسي".[5]

لكن السؤال الذي يمكن طرحه هو التالي: كيف تتواجد هذه الأنماط من الإنتاج؟

[4]- Paul Pascon, 1993, Kholibi 2004
[5]- Pascon, 1983, p 591

"إن التشكيلة الاجتماعية اليوم في الحوز هي الآن مخزنية"، والتي وجدت سندها في الأسرة الممتدة، حيث يتم استغلال النساء والأطفال. ولكن هذا النظام "القايدي" و"المخزني" Caïdalisme يخضع بدوره لهيمنة الرأسمالية العالمية في مجال الإنتاج والتبادل".[6]

والنتيجة على مستوى السلوك الاجتماعي، هي أن الإنسان "في المجتمع المركب société composite يلعب في كل الأمكنة، وفي كل الميادين ... "

هذا المنظور الشمولي النسقي Holiste للمجتمع، نجده أيضا في دراسات سوسيولوجية أخرى.

لقد أنتج عبد الكبير الخطيبي نصا حول "التراتبات الاجتماعية" les hierarchies sociales. واستخدم عبد الله حمودي 1977 مفهومي "الدراسة المندمجة" و"النمو المندمج" le développement intégré.

هذه النظرة الشمولية، ستصبح فيما بعد مثار نقاش وتساؤل بكيفية تدريجية، حيث نجد في نهاية كتابه عن "الحوز" وفي الصفحة المخصصة لتقديم الشكر، تقديم بول باسكون الاعتراف الآتي:

"بعد قراءة هذا الكتاب، أجد نفسي أني لم أتكلم عن سكان الحوز، ولكن تكلمت من خلالهم وعندهم...لقد قال جاك بيرك Jaque-Berque خلال المناقشة " إنها "ميتاأطروحة" "métathèse". بالفعل لقد فهمت جيدا الجماعات والخطوات أو الإجراءات أكثر من فهمي لسلوكيات الأفراد؛ فهي تبدو لي متعذرة عن الإمساك بها، لأنها تتجه نحو اتجاهات وحقول وإمكانات متعددة – غنية، وينبغي أن نأخذ حذرنا تجاهها، لهذا لم أتمكن من بناء مفاهيم حولها les conceptualiser، Pascon 1983.

هذه الصعوبة النظرية، تجد تفسيرها في كون بول باسكونPaul Pascon، كان يفصل بين منطق الجماعات ومنطق الأفراد، والدليل على ذلك أنه كان يسعى إلى فهم الجماعات الاجتماعية، بعيدا وخارج سلوك أفرادها.

3- سسيولوجيا المرأة أو السسيولوجيا في صيغة المؤنث

لقد ظهر أول بحث حول النساء، لدى فريق البحث الذي كان يقوده بول باسكون. "Paul Pascon" وتعد مليكة البلغيثي Malika Belghiti أول عالمة اجتماع قامت بدراسات ميدانية حول النساء سنة 1969. كما يعد الشأن بالنسبة لكل دراسة أولية واستطلاعية كانت المداخيل les entrée متعددة، وكان هدف الدراسة جد

[6]- Pascon, 1983

واسع، وهو معرفة الوسط القروي للمرأة، وكان الغرض من ذلك هو توفير وتحصيل معارف ومعلومات مفصلة حول النساء لأنشطتهن ومشاكلهن.

لقد دشنت فاطمة المرنيسي فيما بعد دينامية جديدة حول الدراسات النسائية، حيث توزعت أعمالها ما بين الدراسة والتحليل الذي يستقي مصادره ومواده من تاريخ العالم الإسلامي (البنيات السياسية، والثقافة، والفكر الديني..) والبحث الميداني، الذي يقوم على أساس الملاحظة المباشرة والمقابلات. ونعرض فيما يلي مثالا عن كيفية تصورها للهدف الذي تتوخاه مجموعة من الباحثين تشكلت سنة 1981 من أجل دراسة أسئلة ومشاكل الأسرة والمرأة والطفل:

المساهمة في تراكم المعرفة العلمية حول المرأة. وعندما أقول العلمية، فإني أقصد بذلك معطيات حول الواقع المعيشي النسوي le vécu وتطوير الخطاب العلمي حول وضعية المرأة، يعد بدون شك طريقة من أجل المساهمة في تحسين هذه الوضعية".[7]

العمل الجماعي المشار إليه أعلاه، كان يضم زهاء عشرين عضوا ينتمون لتخصصات مختلفة.

في إطار مطبوعات سلسلة "مقاربات" Approchesمطبعة "فينيك Ed. Fennec"، والتي كانت تديرها الأستاذة عائشة بلعربي، تم نشر تسع مؤلفات جماعية حول النساء، ما بين سنة 1987 وسنة 1999. وظهرت هذه الدراسات والكتب باللغة الفرنسية واللغة العربية. كما أن عناوين هذه المؤلفات تقدم لنا فكرة عن الموضوعات والقضايا التي تمت مقارنتها: "لوحات نساء" Portraits des femmes 1987، النساء والسلطة femmes et pouvoirs 1988، "نساء موزعات بين العمل والأسرة" femmes partagées, famille et travail، 1989، "الجسد في صيغة المؤنث" corps au féminin 1991، "الأزواج موضوع سؤال" – couple en question 1992. "أن تكوني فتاة شابة" être jeune fille 1994، "نساء قرويات" femmes rurales 1995. "النساء والإسلام" femmes initiatives féminines، منذ سنوات 1980 ستتعدد اللقاءات والمنشورات المتعلقة بالمرأة. فاطمة المرنيسي 1983-1991، نعمان جسوس 1988، بلعربي 1993، بورقية 1996، شراد وغلاجير gharrader Gallagher 1996 وذلك يرجع إلى ارتفاع عدد الباحثات في علم الاجتماع، وأيضا إلى التشجيع والدعم المالي من قبل بعض المنظمات الدولية المهتمة بقضايا المرأة والطفل.

لقد بدأ يتشكل مشهد وواقع جديد في حقل البحث السوسيولوجي بفاعلين جدد وقيم جديدة وإشكاليات جديدة.

[7]- المرنيسي، 1987

لقد ظلت العلاقة بين البحث السوسيولوجي والالتزام السياسي قائمة، ولكنها تتخذ صورا أخرى (العيادي 2002)، جل الدراسات عن المرأة والطفل كان يسكنها هاجس تغيير وضعية المرأة، وبالتالي مصاحبة الحركة النسائية، لقد كانت المقاربة تريد أن تكون أكاديمية علمية ونقدية في الوقت ذاته.

لا يمكن هنا أن ننفي أنه في مجال العلوم الاجتماعية، يصعب عدم الاعتراف، بعلاقة وتأثير القيم وتوجيهها لاختيارنا البحث في قضايا وإشكالات معينة. لقد كانت الدراسات القروية والدراسات النسائية متأثرة بأنساق قيمية محددة. إن الاشتغال على النساء القرويات، والنساء الأجيرات، وأطفال الشوارع إلخ، لم يكن عملا أو اختيارا بمحض الصدفة.

ولكن، ينبغي هنا، أن نسجل فرقا له مغزى ودلالة بين مختلف أجيال علماء الاجتماع.

فالجيل الأول من علماء الاجتماع، كان متشبعا بالإيديولوجيا الماركسية، والتي كانت تقدم نظرة كلية وشمولية حول العالم. أما الأجيال اللاحقة، فكانت متأثرة بإيديولوجيات قطاعية idéologies sectorielles، إيديولوجيات أقل شمولية وهيكلية، moins structurées et moins totalitaires (الحركة النسائية، حقوق الإنسان، ...).

4- سوسيولوجيا الاكتشاف Sociologie d'exploration

وجه عبد الكبير خطيبي Abdelkbir Khatibi بعض كتاباته إلى مهمة تفكيك وتحليل الرموز والإشارات الثقافية des signes cultures، وذلك بفعل تأثير سيميولوجية la sémiologie رولاند بارت Roland Barth و"جان بودرييار" jean Baudrillard ويعتبر مؤلفه son texte حول الوشم "Tatouage" في المغرب" خير مثال على ذلك. بعيدا إذن عن حقول الاشتغال والفعل في الميدان، لقد فتح آفاقا جديدة. كان في تعلمه وممارسته لعلم الاجتماع يحمل معه حمولة معرفية أدبية أكثر منها سوسيولوجية.

بالإضافة إلى مقالاته ورواياته التي لا يتسع المجال هنا لتفصيل القول فيها، لقد درس مشاكل تتعلق باللغة وأسئلتها، والرمز والمعنى، والجسد والجنس حسب التصور الديني وفي الثقافة العربية الإسلامية[8]. يبدو أنه كان يتمتع بحرية أوسع فيما يخص علاقته بالعلوم الاجتماعية. كتب في نص اهتم فيه بتفسير وتأويل 48 مثلا تعلق بالجسد Proverbes.

[8]- Khatibi, 1983

"التحليل القصير الذي سيأتي فيا بعد، رغم كونه يشتمل عناصره من اللغات خاصة (اللسانيات، والاثنولوجيا، وعلم الاجتماع) أو الثقافة الشعبية (المغربية)؛ فهو يحافظ على حريته وحركته وحداثته".[9]

العديد من الدراسات اهتمت بظواهر اجتماعية، كانت تعتبر بمثابة "محرمات" أو "طابوهات" des tabous من الناحية الاجتماعية، كالجنس خاصة: نذكر على سبيل المثال، فاطمة المرنيسي 1983 – عبد الصمد الديالمي (1988-1991-1995-1997) سمية نعمان جسوس (1988-2000)، كما أن فئة الشباب قد شهدت اهتماما ملحوظا فيما يخص الكتابة السوسيولوجية. إن أحدث بحث حول الشباب، قد أنجزه بول باسكون Paul Pascon ومكي بنطاهر Mekki Ben Tahar 1978 القضايا والمواضيع التي تمت معالجتها كانت عديدة ومتنوعة المدرسة، الهوايات Loisirs والصداقات، العمل، الجنس، المخزن، المال، الأسرة، المرأة، الماضي والمستقبل.

منذ سنة 1990، بدأنا نلاحظ تزايدا نسبيا فيما يتعلق بالأبحاث السوسيولوجية عن الشباب. في سنة 1993 قام كل من المختار الهراس وإدريس بنسعيد، والأستاذة رحمة بورقية ببحث اعتمادا على وسيلة الاستمارة استهدف 500 طالب في الرباط، من المواضيع الرئيسة التي تمحورت حول الدراسة، نجد علاقات الطلبة بالجامعة، والأسرة، والقيم.

في سنة 1996 أنجزت رحمة بورقية ومحمد العيادي والمختار الهراس وحسن راشق بحثا حول الممارسات والقيم الدينية في أوساط 800 طالب وتلميذ في الرباط، تمحورت هذه الدراسة حول التعبير الديني لهذه الفئة من الشباب، وعلاقته بالأسرة، والتسامح.

لقد ظلت الكثير من المواضيع ثانوية نسبيا، يمكن أن نذكر على سبيل المثال: السوسيولوجية الحضرية. فرانيواز نافيز بوشنين Françoise Navez Bouchanine، 1988، 1997، 2002، خصصت العديد من البحوث والدراسات الميدانية للتفاعل بين "الممارسات المجالية والممارسات الاجتماعية" l'interaction entre pratiques spatiales et pratiques sociales و"الأنواع السكن وأنماط السكنى في الوسط الحضري".

أما عبد الرحمان رشيق 1994– 2002b – 2002a، فقد قام بتحليل الحركات الاجتماعية، والتوترات العنيفة، والمظاهرات les émeutes وانعكاساتها حول سياسة المدينة وتنظيم المجال في المدن الكبرى المغربية.

[9]- khatibi , 1983, p 26

ما ميز الإنتاج السوسيولوجي، باستثناء بعض الدراسات القليلة التي تم إنتاجها من قبل الشبكة المتمحورة حول بول باسكون Paul Pascon، هو هيمنة الطابع الفردي؛ أي أن الباحث ينجز دراساته وحده ومنعزلا. وهذا يتجلى في تنوع المواضيع والقضايا المدروسة، والميل إلى معالجة العديد من المواضيع من طرف الباحث نفسه - على الأقل، ينبغي تسجيل أن العديد من البحوث قد أنجزت في إطار العمل الجماعي خلال العقدين الأخيرين.

إن الإنتاج السوسيولوجي بصفة عامة، قد تمحور بين أساسين:

- الدراسة القروية، خاصة المورفولوجية الاجتماعية والدينية الاجتماعية، والدراسات النسائية. هذه الميادين قد تأثرت بأنساق من القيم تتسم بكونها على الأقل بنيوية ومنظمة (الماركسية – النزعة النسائية – حقوق الإنسان).

لهذا يبدو أنه من الأجدى مستقبلا التفكير في كيف يمكن للعلوم الاجتماعية أن تظل رهينة النزاعات الإيديولوجية، ومتأثرة بأنساق قيمية، وكيف ينبغي التعامل معها؟ وتطرح أسئلة أخرى ذات صلة بالمنهاج وأدوات البحث السوسيولوجي، ومهنة السوسيولوجي، لهذا تعاني العلوم الإنسانية من عدة إكراهات وصعوبات، تتعلق بميادين تخصصها، مما جعل العديد من الدراسات والمقاربات تتسم بالطابع الاستكشافي، ويغلب عليها النزوع نحو البحث في عدة مواضيع وبكيفية عامة.

5- الاهتمام بالدراسات الأنثروبولوجية

وجد علماء الاجتماع أنفسهم، في مجتمع كالمغرب، في مواجهة ظواهر ثقافية تتجاوز حقل تخصصاتهم التقليدية، مما دفعهم لتوجيه الاهتمام إلى الأنثروبولوجيا.

وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن "أرنيست كلنير Ernest Gellner" و "دافيد هارت David Hart"، بل إن تيارا كاملا في الأنثروبولوجيا يقوده كليفورد كيريز Clifford Gertz قد أنتجوا أعمالا مرجعية des œuvres de référence.

إن علماء الاجتماع المغاربة، الذين وجدوا أنفسهم معنيين ببناء الحقل المعرفي لتخصصهم العلمي، لا يمكن لهم أن ينأوا بأنفسهم عن هذا السجال والحوار والتموقع Positionnement النظري تجاه هذه الكتابات الأنثروبولوجية.

لم يكن الإنتاج الأنثروبولوجي في المغرب استجابة لطلب أو حاجة اجتماعية، بقدر ما كانت الأنثروبولوجيا ضرورة ملحة، اقتضاها الحوار والجدل مع الأنثروبولوجيا الأنجلوسكسونية، وأيضا من أجل تعبئة المكتسبات

النظرية للأنثروبولوجيا بغية فهم الظواهر الثقافية المتنوعة المرتبطة بالقبلية، والطقوس، والنسق السياسي، والحقل الديني، والزوايا وغيرها...

لقد كان العديد من هذه الدراسات قريبا من تقاليد الأنثروبولوجيا الثقافية؛ فقد درس محمد بوغالي Mohamed Boughali (1988، 1974) الذهنية التقليدية المغربية انطلاقا من تمثلات المكان أو الفضاء l'espace عند المغربي الأمي، وسيهتم فيما بعد بإنجاز عمل حول ممارسات العلاج التقليدي للأمراض العقلية. أما بول باسكون Paul Pascon، فهو سيهتم بوصفه مؤرخا "بزوايا الحوز" Zaouias du Haouz 1983، ولقد أنجز فيلما حول المعروف Ma'rouf (repas sacré)[10]. ولكن تجربته الأولى الميدانية في حقل الإثنوغرافيا الدينية كانت متأخرة. في سنة 1981 نسق بحثا حول "موسم تازروالت" Tazerwalt. لقد كانت الطقوس موضوعا لعدة دراسات أخرى، حيث قام عبد الله حمودي بمقاربة عيد الأضحى (1988)، وبين حسن راشق كيف أن الطقوس Les rites، 1990 (من خلال دراسته لوجبة تعد خلال العيد) تشكل بالنسبة للمجتمعات القروية، والتي يغلب عليها الطابع الشفوي في المجال المعرفي والثقافي، أن هذه الطقوس تعتبر مصدرا أساسيا حول الجماعات الاجتماعية وثقافاتها.

ظهرت الأنثروبولوجيا السياسية بدورها، كاتجاه جديد، وهكذا سيتم الاهتمام ابتداء من 1990 بالبحث في الحكومة التقليدية (المخزن) ودعائمها الرمزية (بورقية وهوبكينس Bourqiat et Hopkins 1991 – التنظيم القبلي وتساؤلات حول النسق التجزيئي système segmentaire، الحقل السياسي والصراعات الاجتماعية حول الحج وزيارة الزوايا، أساس ودعامة السلطة المطلقة والاستبداد، كلها محاور شكلت موضوع البحث والاهتمام بالنسبة للباحثين الأنثروبولوجيين المغاربة (رشيق 1992، حمودي 2001، طوزي 1994).

الدراسات حول التنظيم الاجتماعي للجماعات القروية وتغيراتها هي بدورها تأثرت بالتقاليد الأنثروبولوجية، اهتم علي أمهان 1998-1983 بدراسة البنيات الاجتماعية في جماعات الأطلس الكبير، واستعمالات الزمان والمكان والتحالفات العائلية، والانعكاسات الاجتماعية المترتبة عن المنتوجات الجديدة في الاستهلاك. ودرس محمد مهدي 1999 دينامية البنيات الاجتماعية والمعتقدات الدينية في علاقتها بالحياة الرعوية La vie pastorale حسن راشق (2000) حلل تراجع جماعات الرحل les nomades ووضح كيف أنه من خلال العقود الثلاثة الأخيرة، تركوا الدوار والجمال، والتنقلات الكبرى...

إذا أمعنا النظر في جل الدراسات المنجزة خلال العقدين الأخيرين من قبل الأنثروبولوجيين المغاربة، فإننا نسجل أن الظواهر والمواضيع التي تم مقاربتها لا تختلف في شيء عن تلك التي عالجتها الأنثروبولوجيا

[10]- Pascon , 1985 , p 132,45.

الاستعمارية: الزوايا – عيادة الأولياء، وزيارة الأضرحة، المخزن... إلخ.. يبدو أن اختيار المواضيع ظل محافظا، وكان التجديد يبدو فقط على المستوى النظري والإثنوغرافي.

إن مقاربات الأنثروبولوجيا المعاصرة، تركز أساسا على الوصف والتأويل النسقي للعمليات الاجتماعية الملموسة ولأطرها الثقافية الموحقية – إنها تسمح بإعادة بناء وتأويل منظور مغاير، المواضيع التقليدية للأنثروبولوجيا الدينية والأنثروبولوجيا السياسية.

وراء هذه الانشغالات الأنثروبولوجية، يختفي هاجس البحث عن "النحن الاجتماعي" "le nous social" في خصوصيته ومحاولة إخضاعه للتحليل والتأملات المستمدة من العلم السوسيولوجي والأنثروبولوجي.

ومن هذا المنطلق، يمكن اعتبارها بمثابة سوسيولوجيا لامتلاك الموضوع، سوسيولوجيا البحث عن الهوية، والتي طبعت جيلا من السوسيولوجيين المغاربة Une sociologie de l'identitaire. لكن هذا الامتلاك لا يتم إلا عبر التفكير ومساءلة علاقته بالممارسة.

6– السسيولوجيا: الميدان، النظريات والخبرة Sociologie: terrain, théories et expertise

على مستوى الممارسة في الميدان، والتي تميزت بها بعض الأعمال والدراسات السوسيولوجية- في غياب دعم مؤسسات بإمكانها تمويل البحوث الميدانية، فإن الاستشارة والخبرة la consultation et l'expertise قد لعبتا دورا مهما في بناء تخصص ومادة علمية ناشئة، ألا وهي السوسيولوجيا. لقد وجد العديد من السوسيولوجيين أنفسهم مشتغلين ومنخرطين في هذا الاتجاه، بوصفهم مستشارين consultants في إطار مشروع التنمية لدى هيئات وطنية ودولية أو لفائدتها.

لقد كان الطلاق بالنسبة للجيل الأول من السوسيولوجيين المغاربة، بين العلوم الاجتماعية والسلطات العمومية، كان طلاقا إيديولوجيا أكثر منه فعليا وواقعيا. Effectif

منذ سنوات الستينيات من القرن الماضي، أنجز بعض علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا دراسات في إطار مشاريع التنمية القروية.

تهييئات زراعية Aménagements agricoles، وهيدرولوجية Hydraulique، ورعوية Pastorales، وتجهيز العالم القروي بالكهرباء ومد قنوات الماء العذب. لقد مولت الدولة والهيئات الدولية وجمعيات المجتمع المدني العديد من الدراسات والأبحاث. إن الطلب على الاستشارة والخبرة في المجال السوسيولوجي، قد بدأ يتزايد بكيفية تدريجية- حاليا ينبغي الإشارة إلى أن هذا الانفصال الإيديولوجي، بين السلطات العمومية والعلوم الاجتماعية، قد بدأ يندثر ويختفي بفعل ظهور الحاجة إلى خبراء سوسيولوجيين.

يوجد مؤشر دال على هذا التطور، والذي يتجلى بصفة واضحة في تمويل الدولة لعدة دراسات، من بينها على سبيل المثال: البحث الوطني حول القيم، والذي تم إنجازه في إطار تقرير الخمسينية عن التنمية البشرية.[11]

نجم عن هذا الوضع، أن مجالات البحث والدراسة كانت محدودة وضيقة، كما أن علماء الاجتماع، وجدوا أنفسهم يمارسون عدة وظائف Polyfonctionnels: باحثون في عدة ميادين، مستشارون – خبراء. كل هذا أسهم في إثراء السوسيولوجيا بمعطيات مستمدة من الميدان، يتعذر على المؤسسات الجامعية، تمويلها وتغطية مصاريفها المالية. لكن مع الأسف، أن القليل من هذه الدراسات قد تم نشرها أو تبيينها كأبحاث أكاديمية جامعية.

[11]- Raclaik. H 2005b.

Bibliographie :المراجع

1- اعتمدت في هذا المقال على المعطيات التي تضمنها تقرير للأستاذ حسن راشق 2007، في إطار مشروع "تقويم النظام الوطني في البحث في ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية في المغرب.

واهتم التقرير بصفة خاصة بالكتابات السسيولوجية باللغة الفرنسية في المغرب، في حين أن الإنتاج السسيولوجي في المغرب يتم باللغة العربية والفرنسية والإنجليزية.

AMAHAN A. (1983), Peuplement er vie quotidienne dans un village du Haut-Atlas marocain: Abadou de Ghoujdama: étude socio-linguistique, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner.

AMAHAN A. (1998), Mutation sociales dans le Haut Atlas: les Ghoujdama, Paris, Editions de la Maison des sciences de l'Homme.

BELARBI A. (1987) (dir.), Portraits de femmes, Casablanca, Editions le Fennec, Collection Approches.

BELARBI A. (1993), le Salaire de madame, Casablanca, Editions le Fennec.

BELGHITI M. ([1969] 1978), « Les relations féminines et le statut de la femme dans la famille rurale dans trois villages de la Tassaout, Etudes sociologiques sur le Maroc », Bulletin économique et social du Maroc, pp. 289-361.

BELGHITI M. & A. Tamou (1971), « La ségrégation des garçons et des filles à la compagne », Bulletin économique et social du Maroc, vol. XXXIII, n° 120-121, p. 81-144

BENTAHAR M. (1989), La jeunesse arabe à la recherche de son identité, Rabat, Edition Dar al Kalam.

BOUGHALI M. (1974) La Représentation de l'espace chez le Marocain illettré, Casablanca, Edition Afrique-Orient.

BOUGHALI M. (1988), Sociologie des maladies mentales au Maroc, Casablanca, Editions Afrique-Orient.

BOURQUIA R. (1996) Femmes et fécondité, Rabat, Editions Afrique Orient.

BOURQUIA R. & N. HOPKINS (1991) (dir.), Le Maghreb: approches des mécanismes d'articulation, Rabat, Editions Dar al Kalam.

BOURQUIA R., EL HARRAS M. et D. BENSAÏD (1995), Jeunesse estudiantine marocaine: valeurs et stratégies, avec la collab. De Jamila Bennaghmouch, Rabat, Editions de la Faculté des lettres et des sciences humaines.

KHATIBI A. (1983), Maghreb pluriel, Paris, Editions Denoël.

KHATIBI A. (2002), Chemins de traverse: essais de sociologie, textes réunis et revus par NEJJAR S., Rabat, Edition Okad.

KHATIBI A. ([1981] 2002), « Décolonisation de la sociologie », KHATIBI A., Chemin traverse: essais de sociologie, textes réunis et revus par NEJJAR S. Rabat, Editions Okad., pp. 113-125.

MAHDI M. (1999), Pasteur de l'Atlas: Production pastorale, droit et rituel, Casablanca, Impr. Najah el jadida.

MERNISSI F. ([1975] 1983), Sexe, idéologie, islam, trad. De Diane Brower et Anne-Marie Pelletiern, Paris, Librairie Tierce.

MERNISSI F. (1987), « Préface », dans BELARBI A., Portraits de femmes, Casablanca, Edition le Fennec, Collection Approches.

MERNISSI F. (1991), Le monde n'est pas un harem: paroles de femmes du Maroc, Paris, Edition Albin Michel.

NAAMANE GUESSOUS S. (1988), au-delà de toute pudeur: la sexualité féminine au Maroc, Casablanca, Edition Eddif.

NAAMANE GESSOUS S. (2000) Printemps et automne sexuels: puberté, ménopause, andropause au Maroc, Casablanca, Edition Eddif.

NAVEZ-BOHCHANINE F. (1988) Réflexions sur les travaux concernant l'habitat urbain, dans collectif, la sociologie marocaine contemporaine. Bilan et perspectives, Edtion de la Faculté des lettres, Rabat, p. 95-109

NAVEZ-BOUCHANINE F. (1997), Habiter la ville marocaine, Paris, Editions l'Harmattan.

NAVEZ-BOUCHANINE F. (2002) (dir.). la Fragmentation en question: des villes entre fragmentation spatiale et fragmentation sociale, Paris, Edition l'Harmattan.

PASCON P. (1983), Le Haouz de Marrakech, 2 tomes, Rabat, CURS, CNRS, INAV-Rabat.

PASCON P. (1984), la maison d'Iligh et l'histoire sociale de Tazerwalt, avec la collaboration de ARRIF A., SCHROETER D., TOZY M. & VAN DER WUSTEN, SMER, Rabat.

PASCON P. (1985, « The Mârouf of Tamejlojt or the Rite of the Bound Victim », dans GELLNER E. (dir.), Islamic Dilemmas: Reformers, Nationnalists and Industrialization: The Southern Shore of the Mediterranean, Berlin, Mouton Publishers, pp. 132-145

PASCON P. (1986 [1979]) "La sociologie, pourquoi faire? » dans Pascon, 30 ans de sociologie du Maroc (textes anciens et inédits) , Rabat, Bulletin économique et social du Maroc, n° 155-56, pp. 59-70

PASCON P. & M. BENTAHAR (1978 [1969]), « ce que disent 296 jeunes ruraux » dans Etudes sociologiques sur le Maroc: recueil d'articles conçu et préparé par Abdelkébir Khatibi, Tanger, Editions marocaines et internationales, pp. 145-287

RACHIK A. (1994), « Périphérie, émeutes et politique urbaine: le cas de Casablanca », Horizons maghrébin: le droit à la mémoire, n° 25-26, p. 224-235

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com